كلية الاداب
قسم التاريخ
محاضرات مادة (تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر الراشدي و الاموي)
م.م. وداد محمد عبد الله
المرحلة الثانية (الصباحية و المسائية)
2025 – 2026
المحاضرة (4)
الجزء (1)

علي بن ابي طالب (40-35هـ)

الإمام علي بن أبي طالب اسمه الى مناف عليه السلام، ابن عم النبي ﷺ وصهره، وُلد في الكعبة المشرفة سنة 23 قبل الهجرة، وهو حدث لم يشهده التاريخ من قبل، عرف منذ نعومة أظفاره إلى الالتزام بالدين والفضيلة. تربى في حجر النبي ﷺ، يتابع خطواته ويتعلم منه الحكمة والعلم والأخلاق، فقال الامام كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر امه يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علماً ويأمرني الاقتداء به " حتى صارت سيرته مرآةً صادقة لما أراد الله أن يكون عليه الإنسان في سلوكه وتعاملاته. لقد تأثر بشدة بأمه فاطمة بنت أسد، التي غرست فيه مبادئ الحق والعدل، وجعلته على الدوام قريبًا من نبض الناس وهمومهم.

بعد وفاة الخليفة الثالث عثمان بن عفان سنة 35هـ، فزع الناس وارتبكت قلوبهم، فتوجهوا إلى أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام طالبين منه قبول الخلافة، إلا أن الإمام رفض ذلك في البداية، مؤكدًا على زهد نفسه وحرصه على مصلحة الأمة قبل أي اعتبار شخصي، فقال لهم: "لا حاجة لي في أمركم، أنا بمن اخترتم راضٍ"، غير أن إلحاحهم وتكرار طلبهم، واعترافهم بأنه الأقدر على تولي أمر المسلمين، جعله يقبل بعد أن تأكد من صدق نواياهم. قالوا له: "ما نختار غيرك فأبا علينا"، وتكرر طلبهم له بقبول البيعة قائلاً: "إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة، وقد طال هذا الأمر ولسنا نختار غيرك، ولابد لنا منك، وإن أنت لم تقبل ذلك خفنا أن ينخرق في الإسلام خرق، إن بقي الناس لا ناظر فيهم فالله الله في ذلك!" فأجابهم الإمام: "أنا أقول لكم قولاً، فإن قبلتموه قبلت منكم"، فقالوا: "قل ما شئت فمقبول منك".

ثم صعد الإمام المنبر، حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال: "أما بعد فقد طال ترادادكم إلي فيما أردتموه مني وكرهت أمركم، فأبيتم علي إلا ما أردتم مني، وقد علمت ما سبق فيكم، فإن كنت أتولى أمركم علي العدل فيكم والتسوية بينكم، وإن تكون مفاتيح بيت مالكم معي ليس لي منه إلا مثل ما لأحدكم، ولا لغيري إلا مثل ذلك، توليت أمركم"، فقالوا: "نعم"، فسألهم: "أرضيتم ذلك؟"، فقالوا: "رضينا"، فقال: "اللهم اشهد عليهم".

وقد وصف الإمام علي عليه السلام إقبال الناس عليه بقوله: "ما راعني إلا والنّاس كعرف الضّبع إليّ، ينثالون عليّ من كلّ جانب، حتى لقد وطىء الحسنان، وشقّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم"، وقال أيضًا: "وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداككتم علي تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتى انقطعت النعل وسقط الرداء ووطئ الضعيف، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت إليها الكعاب".

إن هذه الأجواء تصور لنا بجلاء مدى رغبة الناس في تسلم الإمام علي زمام الأمور، وفي الوقت نفسه مدى زهد الإمام في السلطة، حتى عند قبوله للخلافة، حيث سعى إلى إعزاز الإسلام ومنع الانتهازيين من استغلال الظروف لمآربهم الشخصية.

بعد تسلم الإمام علي للخلافة وبيعة عموم الناس له، استثنى قلةً قليلة، فقد تعامل معهم بلطف ورحمة، ولم يجبرهم على البيعة، وذكر المؤرخون أن عبد الله بن عمر رفض إعطاء البيعة إلا بعد أن رأى بيعة الناس،

وعندما طُلب منه كفيلاً على صدق ادعائه فلم يجد، قال الإمام علي: "فأنا كفيله". هذا الأسلوب لم يشهده المسلمون قبل خلافة الإمام علي، فهو يجسد رحمته ولطفه بالمعارضين.

المعارك في عهد الامام

منذ اللحظة التي بايع الناس فيها الإمام عليّ عليه السلام، شرع في تطبيق سياسة إصلاحية واضحة تقوم على المساواة في العطاء، وردّ المظالم، وعزل الولاة الذين أساؤوا في إدارة شؤون الرعية. هذه الإجراءات لم تكن مجرد تفاصيل إدارية، بل مثلت مسًّا مباشرًا بمصالح النخب التي اعتادت على الامتيازات والتفضيل، فكان طبيعيًا أن تتشكل جبهة مقاومة لهذه الإصلاحات. غير أنّ هذه الجبهة لم تعلن حقيقة دوافعها المرتبطة بالمصالح، بل رفعت شعارات دينية وسياسية، واستثمرت قضية دم عثمان شعارًا جامعًا يبرّر تحركها، فانتهى الأمر بتفجّر ثلاث مواجهات كبرى رسمت ملامح عهد الإمام: الجمل وصفّين والنهروان.

- معركة الجمل سنة ستّ وثلاثين للهجرة، رفع قادة هذه المعركة طلحة والزبير والسيدة عائشة الثأر لدم الخليفة الثالث عثمان شعارا لهم، الا ان الدافع الحقيقي لهم هو حرمانهم من الامتيازات التي تمتعوا بها سابقا ومساواتهم مع العامة وجملة السياسات الاصلاحية التي استحدثها الامام علي (ع) والتي مست مصالحهم ومكانتهم الاجتماعية بشكل مباشر ، اذ ادركوا انهم بعيدون عن خيارات الأمام في شغل المناصب الادارية كالولاية على الامصار فسعوا الى قتال الامام بهذه الحجة التي اسقطها الامام ان القصاص من الجناة سيقام بعد استقرار الامر وهدوء الفتنة لتجنت اراقة الدماء واشاعة الفوضى الا انهم اصروا على التصعيد وحشدوا بتهيئة جيش ساروا به الى البصرة ودخلوها عنوة ونهبوا بيت مالها وثاروا الفوضى والرعب بين اهلها .

ورغم هذا بعث لهم الأمام من ولده الامام الحسن وعمار بن ياسر ورسل اخرين ليوضحوا لهم الامر وبرفعوا عنهم الاشتباه لعدم الوقوع في الفتنة الا انهم اصروا على قتال الامام الذي اضطر لقتالهم بعد استنفاذ وسائل الحيلولة دون ذلك ، فسقط الاف القتلى من الطرفين وتكبد المسلمون خسائر فادحة كان يمكن تجنبها لو استمع اصحاب الجمل لصوت العقل ولو اتبعوا نهج واسلوب امير المؤمنين في المعارضة السلمية ،

وعلى كل حال لم يتعامل الامام مع قادة هذه المعركة على اساس انهم متمردون وخارجون الخ ولم يحاسبهم محاسبة الحاكم للمتمردين وانما كان تعامله ابوياً ومسؤولاً وراعيا للمصلحة العامة من خلال عفوه عن النادمين والهاربين وعدم التنكيل بالناجين من هذه المعركة او من ذويهم ومعالجة الجرحى وغيرها من الاجراءات التي عرفت عن امير المؤمنين في تعامله مع الخصوم ، كما انه اكرم السيدة عائشة بارجاعها الى المدينة بصحبة 40 من النسوة بزي الرجال حيث اثنت السيدة على الامام بعد ان علمت بحقيقة الامرفقالت جزى ابن ابي طالب الجنة وبهذا الاجراء أراد الامام أن يؤكد أنّ الإصلاح لا يُبنى على الانتقام، وإنما يترسّخ بالعدل والإحسان حتى مع الخصوم.

معركة صفّين سنة سبعٍ وثلاثين

كان معاوية بن أبي سفيان من أبرز خصوم الإمام ومعارضيه، وأول الساعين إلى إضعاف حكومة الإمام وإسقاطها بشتى الوسائل. وقد بالغ في عدائه للحكم الجديد حين عَلِمَ أنّه من الولاة الذين عزلهم الإمام في حملة إصلاحاته الإدارية، فراح يثير الفتن ببثّ الشائعات والتحريض على التمرّد، وشحن المتضررين من السياسة الجديدة وتزييف الحقائق، وسائر الوسائل التي اجتهد في انتهاجها من أجل البقاء على ولايته في الشام. وكانت غاراته على الأمصار إحدى أهم الوسائل التي أراد من خلالها إضعاف حكومة الإمام، فألجأته إلى خوض حرب جديدة، ولم تندمل بعدُ جراح معركة الجمل. ورأى الإمام أنّ من صلب مسؤوليته الشرعية حماية دماء الناس وصون حرماتهم التي انتهكها معاوية في غاراته الظالمة، إضافةً إلى ضرورة بسط سلطة القانون التي تمرد عليها معاوية برفضه قرار العزل عن ولاية الشام، فتحرّك الإمام عليّ بجيشه نحو صفّين.

وهناك بادر جيش معاوية إلى منع الماء عن أصحاب الإمام لإضعافهم معنويًا، لكن ما إن استولى جيش الإمام على الماء حتى أمر بإفساح السقاية لخصومه، رافضًا أن يُدار القتال بالحرمان والظلم، لأن الحرب أخلاق.
دارت معركة طويلة أرهقت الطرفين، وتكبّدوا فيها خسائر جسيمة أضعفت مقدرات الدولة المادية والبشرية إلى حدٍّ كبير. وعندما ضيّق جيش الإمام الخناق على أصحاب معاوية، ولاحت علائم النصر، انتدب معاوية شريكه ورفيق دربه عمرو بن العاص لإنقاذه من الهزيمة المحققة. وفعلاً لم يخذله الأخير، إذ اقترح عليه خدعة انطلت على أصحاب الإمام وأدّت إلى انقسامهم، وهي مسألة رفع المصاحف، التي أحدثت شرخًا في صفوف جيش الإمام، رغم أنّه بيّن لهم أنّها من حيل معاوية، وأنّها خدعة لجأ إليها القوم بعد أن أيقنوا بالهزيمة النكراء التي سَيُمنَون بها بعد ساعات قليلة. واحتجّ الإمام على ذلك بأدلّة بيّنة، منها أنّهم لم يلجؤوا إلى الاحتكام بكتاب الله في بداية المعركة، ومنها منعهم الماء عندما كان بأيديهم، ومنها ما سفكه معاوية من دماء الأبرياء في غاراته على الأمصار تحقيقًا لمصالحه الخاصة، وأنّ هؤلاء القوم ليسوا أهل إيمان ولا قرآن. وغيرها من الأدلة التي أراد الإمام من خلالها توضيح الأمر والحيلولة دون الانزلاق في الاشتباه والوقوع في شراك تلك الخدعة.
غير أنّ قسمًا من جيشه أصرّوا على القبول بالتحكيم، وهدّدوا الإمام بالقتل إن لم يقبل الاحتكام إلى كتاب الله ورفعوا شعار «لا حكم إلا لله». وهؤلاء كانوا النواة الأساسية للخوارج الذين قاتلهم الإمام لاحقًا في النهروان.
ولأجل استكمال الحجة على المؤيدين لمسألة التحكيم، وافق الإمام ليُبيّن مستوى مكر القوم من جهة وسذاجة الموافقين على التحكيم من جهة أخرى. وعندما رشّح مالك الأشتر ليمثله في المفاوضات قبالة عمرو بن العاص الذي مثّل معاوية، أبى أولئك المؤيدون وأصرّوا على أن يكون أبو موسى الأشعري هو المفاوض. وقد أقنع عمروُ أبا موسى بأنّ خلاص الأمة بخلع عليّ ومعاوية معًا، فاتفقا على أن يخلع كلٌّ منهما صاحبه أمام الناس. فقدم عمروُ أبا موسى بحجة التكريم والتوقير، فلما أعلن الأشعري خلع الإمام، أعلن ابن العاص تمسكه بصاحبه، وهكذا أدرك المؤيدون للتحكيم فداحة الخطأ الذي ارتكبوه، وأنّهم خُدعوا من قبل القوم. وراحوا يُلحّون على الإمام بقتال أصحاب معاوية مرة أخرى، لكن الإمام أبى ذلك، فتمردوا عليه بعد عودتهم إلى الكوفة، فتحشدوا وعسكروا في النخيلة..
معركة النهروان سنة ثمانٍ وثلاثين، بعد أن تكوّنت جماعة الخوارج نتيجة الخلاف حول التحكيم، فأعلنوا تكفير الإمام، وبدأوا يهددون الأمن العام. تعامل الإمام عليّ معهم أوّلًا بالإنذار والنصح، وفتح أمامهم باب التوبة والعودة، لكنه لم يواجههم بالسيف إلا حين أصرّوا على القتال وباشروا الاعتداء. كانت النتيجة أن قُتل معظمهم ولم ينجُ إلا القليل، موافقًا بذلك ما كان قد أخبر به الإمام قبل المعركة: أنّ المقتولين منهم سيكونون كثرة، والناجين قلّة . وقد ظلّت هذه المعركة عبرةً على أن الإمام قدّم الدعوة والتبيين على المواجهة، ولم يحمل السيف إلا دفاعًا عن الجماعة وصونًا لوحدتها.
وهكذا نجد أنّ الإمام عليّ واجه خصوم الإصلاح بمنهج متدرّج وواضح المعالم. فقد بدأ دومًا بمحاولة الصلح، بالمكاتبات والوسطاء وإقامة الحجة، ثم انتقل إلى القتال عند الضرورة، ولكن ضمن ضوابط دقيقة تمنع الغدر والتمثيل والحرمان من الماء، وأخيرًا مارس الإحسان بعد الغلبة، بصون الحرمات وإطلاق العفو حيث يُرجى منه الإصلاح. وبذلك جمع بين حفظ الدولة من الانهيار وحراسة القيم من الانتهاك، فبقيت سيرته ميزانًا يُحتكم إليه كلما تشابكت الشعارات مع الحقائق.
==========